

إنقاذ الأفلام حفظ للذاكرة وللتاريخ

لا يوجد فيلم مفقود طالما أننا لم نبدأ البحث عنه



الفيلم تاريخ. هذا أمر لا ريب فيه. في الفيلم، كل فيلم، سواء كان روائياً أو تسجيلياً، طويلاً أو قصيراً، يمتلك أن تشاهد ملامح الفترة التاريخية التي ظهر فيها. الملابس، الديكورات، تفاصيل البيوت من الداخل، العمارة، تصفيفات الشعر، طرز السيارات أو العربات، طريقة الحركة، إيقاع الحياة في الشارع، كيف كان الناس يعيشون، وكيف كانوا يتحدثون، وكيف كانت لغة الحديث اليومي بين البشر ثم كيف تطورت.



أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

تاريخ الفيلم هو تاريخ الإنسان منذ ظهور السينما حتى يومنا هذا، أي منذ ما يقرب من 125 سنة. وقد تطور الفيلم في تقنياته وأفكاره وأشكاله وأساليبه ووسائل عرضه، بل وفي تأثيره على البشر أيضاً. وكل الأفلام على الإطلاق، ذات قيمة تاريخية مهما اختلفت حول مستواها الفني، فهذا لا يهم، فالمهم قيمة الفيلم كوثيقة.

كل فيلم هو وثيقة على نحو أو آخر، لذلك أنا من الذين يتحفظون على مصطلح "فيلم وثائقي" وأفضل "تسجيلي"، فمن الممكن حسب ما قدمته من تفسير، أن نعتبر كل الأفلام وثائقية، حتى لو لم تحتو على مشاهد مصورة مباشرة من "الواقع"، لأن كل فيلم هو شاهد على عصره بملامحه المختلفة حتى لو كان يروي قصة خيالية تماماً فهو في هذه الحالة إنما يعبر أيضاً عن الخيال وطريقة صياغة وصناعة الخيال في زمن محدد.

تاريخ صانع

هذا المغزى "الفلسفي" لقيمة الفيلم كوثيقة "تاريخية" رغم أي شطحات خيالية أو مبتكرة، يقودنا بالضرورة إلى أن الحفاظ على تراث السينما في العالم وليس في بلد ما، بل في كل البلاد، هو حفاظ على التاريخ الإنساني نفسه، والفيلم لم يعد ملكاً لصاحبه منذ أن بدأ يعرض في العالم عبر شركات التوزيع التي تمتلك حقوق توزيعه لكنها لا تمتلك التاريخ. لذلك نشأت المؤسسات التي تهتم بحفظ هذا التراث، بالبحث عن الأفلام القديمة التي أصبحت في عرف "المفقودة" واكتشافها والتكثف عنها للعالم بعد ترميمها واستعادة أجزاءها المفقودة ووضعها معاً في السياق الأصلي واستعادة ألوانها الأصلية إن وجدت، أو صورها التقنية وتحويلها أيضاً إلى نسخ رقمية حديثة فائقة الوضوح بحيث يمكن أن تصمد للزمن مئات السنين.

كانت النسخ الأصلية (السلبية) من الأفلام تصنع في الماضي من مادة السيلولويد التي تدخل في تكوينها مادة نترات الفضة وهي قابلة للاشتعال كما تسهل تحللها مع مرور الزمن خاصة لو حفظت الأفلام في درجات حرارة غير مناسبة. وقبل عام 1951 كانت كل الأفلام مصورة باستخدام نترات السيلولويد والكافور مع نترات الفضة لذلك فقد العالم الكثير من الأفلام. الألاف من الأفلام تحللت نسخها الأصلية (نتيجة العمر الافتراضي المحدود للمادة) وذابت وانتهت من الوجود، والألاف من الأفلام الأخرى التهمت النيران في حرائق كبيرة منها على سبيل المثال الحريق الذي نشب في 9 يوليو 1937، في مخزن الأفلام بشركة فوكس في هوليوود وقضى على مخزون الشركة من الأفلام التي أنتجت قبل 1932 ومنها أفلام نادرة، واحترقت النسخ السلبية الأصلية منها، واعتبره المؤرخ السينمائي أندرو سلايد، الفاجعة الأكبر التي تعرضت لها أفلام نترات الفضة في التاريخ.

معهد السينما الأميركي يقدر نسبة ما فقد من الأفلام الأميركية المنتجة بين عامي 1895 و1918 بأكثر من 85 بالمائة. والنسبة قريبة من ذلك في الأفلام الإيطالية والإسكندنافية والفرنسية ومن بين ضحاياها حسبما يذكر الباحث ريمون بورد، أفلام لجورج ملبيس وفردينا زيك وأولى أفلام أبيل غانس وموريس سنيلر وفكتور سغوتروم.

الوجه الأخر للمشكلة أنه مع الانتقال بعد عام 1951 إلى استخدام مادة أكثر أماناً في تصوير الأفلام، قام الكثير من المنتجين بتدمير الألاف من الأفلام القديمة التي ظنوا أن لا قيمة لها طالما أنها لم تحقق نجاحاً جماهيرياً. وفي وقت من الأوقات حذرت اليونسكو من أن العالم يفقد في كل دقيقة فيلماً. وقيمة الفيلم كتراث ثقافي مسألة غير معترف بها حتى يومنا هذا في العالم العربي، أقصد من الناحية العملية. صحيح هناك الكثير من الباحثين والنقاد وأساتذة السينما تحدثوا وكتبوا وحذروا من خطورة تحلل النسخ السلبية وضرورة إنقاذها من التلف وأهمية إنشاء دار المحفوظات السينمائية (السينماتيك) لكن وزارات الثقافة والحكومات المنوطة بهذه المهمة لم تخصص ميزانيات حقيقية لترميم وإنقاذ وحفظ الأفلام حتى الآن.

إنقاذ الأفلام

البحث عن الأفلام مهمّة صعبة وشاقة وتحتاج إلى تمويل. لذلك لا يوجد من يقوم بها في مصر والعالم العربي، لأن الدولة ليست مستعدة لتمويل مهمة البحث والتقصي والتقيب في أرشيفات العالم ودور العرض ومكتبات الأفلام، من أجل العثور على ما يعتقد أنه من الأفلام "المفقودة".

في بداية إنشاء دور السينما كان معظم ملاكها من اليهود الذين غادروا مصر في الخمسينات، وكانت دور السينما تمتلك الكثير من الأفلام والواضح أن الكثير من هذه الأفلام وجدت طريقها إلى إسرائيل، بدليل أن كتاباً صدر في إسرائيل قبل سنوات، يذكر قائمة بنحو مئة فيلم مصري صورت قبل عام 1912 موجودة في الأرشيف السينمائي الإسرائيلي. وهي أفلام لا يعرف عنها أحد في مصر شيئاً وغير موجودة أصلاً في فيلموغرافيا السينما المصرية التي لم تكتمل حتى يومنا هذا. وعندما نقول "كتابة الفيلموغرافيا" فالمقصود رصد جميع البيانات والمعلومات الخاصة بجميع الأفلام التي صورت وأنتجت على أرض مصر، فكلها "أفلام مصرية" حتى لو كان من أنتجوها من الأجانب المقيمين أو الذين جاؤوا خصيصاً للتصوير في مصر.

وقبل نحو خمسة وعشرين عاماً اتصلت بي شابة إيطالية من روما تسألني عما أعرفه من معلومات عن المخرج السينمائي الإيطالي فيكتور روسيتو الذي أخرج أربعة أفلام في مصر في الفترة بين الحربين. ولم أكن أعرف سوى أن المؤرخ والباحث المصري الراحل أحمد الحضري اكتشف وهو يعد كتابه في تاريخ السينما المصرية، فيلم "في بلاد توت عنخ آمون"، وهو فيلم روائي صامت أخرجه روسيتو

عام 1923. واعتبره الحضري أول فيلم روائي مصري وليس فيلم "إبلي" كما هو معروف وسائد. ولكن أين هو الفيلم؟ وأين أفلام روسيتو المصرية الأخرى؟ ربما تكون الإجابة عند الإيطاليين!

هناك مؤسسات ومهرجانات عالمية باتت تمول وتدعم وتتعاون مع أرشيفات وأوروبية في إنقاذ وتجديد الأفلام الكلاسيكية

المؤسسة الدولية التي يرأسها المخرج سكورسيزي تقوم بدور رائد في مجال ترميم وإحياء الأفلام القديمة. ومهرجانات السينما الدولية الكبرى مثل كان وفينيسيا وبرلين تمول وتدعم وتتعاون مع أرشيفات أوروبية في إنقاذ وتجديد الأفلام الكلاسيكية وتوفير نسخ رقمية حديثة منها. ويتم هذا سنوياً خصيصاً للعرض في هذه المهرجانات قبل أن يصبح متاحاً للتداول في أسطوانات البليو راي. ومن هذه الأفلام على سبيل المثال، فيلم "تابلين" (1927) لأبيل غانس الذي قدمت له عرضاً نقدياً من قبل على صفحات "العرب". البريطانيون تمكنوا من استعادة وترميم عدد كبير من الأفلام الصامتة

ترميم وإحياء الأفلام القديمة

التي صورت عن مسرحيات شكسبير. وتقول المعلومات التي نشرها معهد الفيلم البريطاني إن 300 فيلم أنتجت عن أعمال شكسبير حتى نهاية عصر السينما الصامتة. وأصبح لدينا اليوم شريط يتضمن مقاطع من 24 فيلماً من هذه الأفلام التي لم يشاهدها أحد منذ العشرات من السنين، على أسطوانة مدمجة مثل "بوليوس قصير" (إنتاج 1908) و"العاصفة" (1908) و"تاجر البندقية" (1910) و"كليوباترة" (1910) و"الملك لير" (1910) و"ريتشارد الثالث" (1911).. ومنها أيضاً فيلم "روميو وجوليت" الذي يعتبر أول فيلم يظهر فيه الممثل الكبير جون غيلغود عام 1924، كلها مصحوبة بالموسيقى التي كانت تستخدم في ذلك الوقت لمتابعة الأفلام الصامتة في دور العرض.

من ضمن العشرات من الأفلام المفقودة في مصر، لدينا حتى الآن ثلاثة من الأفلام العشرة التي قام ببطولتها نجيب الريحاني، ما زالت مفقودة، هي أفلام "صاحب السعادة كشكش بيه" (1931)، و"حوادث كشكش بيه" (1934)، و"بسلامته عايز يتجوز" (1936). وكان قد تم العثور مصادفة في فرنسا قبل سنوات قليلة، على فيلم "ياقوت" (1934) الذي كان يعتبر مفقوداً. وهو من أفلام الريحاني. وأنا من الذين يؤمنون بمقولة مؤسس السينما الفرنسية هنري لانغوا "لا يوجد فيلم مفقود طالما أننا لم نبدأ البحث عنه!"

رحيل حبيب الصايغ الأمين العام لاتحاد الأدباء والكتاب العرب

طلوعها، وطن الطليعة وقد بنته الطلائع، والأرض الرائعة أبداً في زمنها الرائع، المكنونة في مكانها الساطع.

الراحل جمع بين مناصب رئيس مجلس إدارة اتحاد كتاب وأدباء الإمارات وأمين عام الاتحاد العام للكتاب العرب

وتجدر الإشارة إلى أن حبيب الصايغ ألف عدداً من المجموعات الشعرية، هي: "هنا بار بنسي عيس الدعوة عامة" 1980، "التصريح الأخير للناطق باسم نفسه" 1981، "قصائد إلى بيروت" 1982، "مباري" 1983، "الملاصيح" 1986، "قصائد على بحر البحر" 1993، "وردة الكهولة" 1995، "غد" 1995، "رسم بياني لاسراب الزرافات" 201، "كسر في الوزن" 2011، الأعمال الشعرية الكاملة جزءاً وجزءاً 2 سنة 2012.

ونعم لدخول الشباب، لكن الكفاءة والقدرة على العطاء شرط أول في كل الأحوال. وتحت عنوان "محمد ومحمد.. اعتداد بقود إلى اعتداد" كتب في اليوم الأخير من الشهر الماضي في صحيفة "الخليج" معلقاً على قصيدة جديدة أنشدها محمد بن راشد "محمد بن راشد، وهو من هو في شعره وفي الواقع، يستمد سبب القوة بكل المعاني من محمد بن زايد، الأخ والداعم والمستشار، والقائد الاستثنائي الذي أسس بعد القائد المؤسس زايد الخير، ووضع دولة الإمارات في صميم قلب العالم، فلا جهة إلا الإمارات ولا عنوان".

"ومن كان عضده محمد ما يهيمه حد بو خالد الشهم حامي بعزمه الدولة عنده سيوف العالي مرهقات الحد ف أعادها قاطعة يا كيف مسلولة! لأبيل لرد العدا لأجناد ما تنعد أهل البطولة حماهم ما حد ينوله عليه دوم اعتماداي دايهم بلا عد ويحل أصعب الأمور ببسر وسهولة" ويختتم حبيب الصايغ "ذلك قائد بجاور قائداً في مطلع المطالع، في فجر وطن تكتبه شمس الناس يومياً أول

فبده السباق الانتخابي هو عنوان تجربة وإشارة مستقبل".

واضاف "نعم لدخول المرأة، فهي نصف المجتمع وأكثر، فالرجو أن تساند المرأة المرأة، وأن يساند الرجل المرأة، اليوم هو جزء من تقدم ونهضة الإمارات،



مبدع فقده الساحة الثقافية الإماراتية

العربية والترجمة عام 1998 من جامعة لندن. عمل في مجالي الصحافة والثقافة ويكتب زاوية يومية في صحيفة "الخليج".

نشر إنتاجه عربياً في وقت مبكر وشارك في مؤتمرات وندوات عربية وأجنبية. وترجمت بعض قصائده إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والصينية. حصل الصايغ في العام 2004 على جائزة تريم عمران - فئة رواد الصحافة، وكرمه جمعية الصحفيين عام 2006 كأول من قضى 35 عاماً في خدمة الصحافة الوطنية.

وحصل الراحل في العام 2007 على جائزة الدولة التقديرية في الآداب. ومن أواخر ما نشره الشاعر على صفحته في تويتر مقطوعة تبدو كما لو أنها رثاء منجد للشهيد زايد باني نهضة الإمارات يقول فيها:

رحماك زايد قد بلغت فانفطرت
قلوبنا وارتدت من حسرة كنا
إن شط وجد بنا في النفي مستعرا
فالشوق خالطنا حتى استوى وطننا